الفصـــل الرابـع

====

حركة جهاد الإمـام أحمد بن إبراهيم في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادي

====

١ – حركـــة الجهـــاد٠

٢ – الإمام أحمد بن إبراهيم٠

٣ – نبذة موجزة عن نشأة الإمام أحمد بن إبراهيم٠

٤ – الآثار التى نتجت عن حركة الجهاد٠

٥ – ازدياد النفوذ الإسلامى من جديد٠

٦ – دور العـفر والإمـام أحمـد بن إبراهيم فى نشـر الإسلام فى منطقـة القرن الإفريقى٠

٧ – أهم النتائج التى ترتبت على هذا الصراع فى الحبشة٠

١ - حركة الجهاد في بلاد الزيلع :

كان شن الحروب وما يتبعها من إبادة وتخريب وتدمير وقتل وسبى وأسر هو الأسلوب الشائع الذى لجأ إليه الأحباش والزيالعة حسما للصراع فيما بينهم · وقد امتلأ تاريخ هذين الشعبين فى العصور الوسطى بتلك الحروب ، بحيث لم يخل عهد ملك حبشى من حرب أو حروب شنها واعتدائهم على بلادهم (١) ·

٢ - نبذة موجزة عن نشأة الإمام أحمد إبراهيم :

بدأ الإمام أحمد (جران) حياته بالانتساب إلى أسرة الأمير محفوظ ، فتزوج ابنته وكسب تأييد أنصاره وتثقف ثقافة دينية غزيرة (٢) ·

الإمام أحمد بن إبراهيم هو الملقب بالأعسر ويطلق عليه أحمد جرن Gran ، ولقد كانت نشأته الأولى فى هوبات Hubat – وهى المنطقة الواقعة بين جلديسا وهرر التى أصبحت فيما بعد مركزا لعملياته العسكرية – ولقد وضعه والده تحت رعاية أحد عبيده الذين حررهم ويقال له : « عدلى أو عدولى» الذى أصبح فيما بعد من كبار مؤيديه · ولقد تزوج الإمام أحمد من باتى ابنة السلطان محفوظ إمام زيلع وكسب بذلك تأييد أتباع الإمام محفوظ · وصار

---

(١) رجب محمد عبدالحليم « دكتور » : مرجع سابق ، ص ١٣٣ ·

(٢) حسن أحمد محمود « دكتور » : الإسلام والثقافة العربية فى إفريقية ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٤٦٤ ·

أخيرا من قواد الأمير أبون بعد موت الأمير محفوظ ولما قتل الأمير على يد السلطان أبى بكر (١) ٠

أمضى الإمام أحمد سنواته الأولى فى صراع مع السلطان أبى بكر فى هرر، وانتهى ذلك الصراع بمقتل السلطان ، وقام الإمام أحمد بتنصيب شقيق القتيل ملكا تابعا له على هرر (٢) ٠ وعندما فرغ من هذا الأمر أخذ يعمل على تحقيق الهدف الأكبر الذى شعر بأنه قد خلق له (وهو أن يكون إماما للمسلمين) ويستولى على جميع أرجاء الحبشة ٠

اتبع الإمام بعد أن سيطر على مقاليد الأمور فى هرر سياسة موفقة جمعت الناس حوله (٣) ٠ فقد طبق الشريعة الإسلامية فى حكمه وخاصة فى توزيع أموال الزكاة على مستحقيها (٤) ، وكان السلاطين قبله يجمعونها ويحتجزونها لأنفسهم ولبطانتهم (٥) ٠ كما طبق الشريعة الإسلامية بالنسبة لأموال الغنائم ، وبهذه الأعمال كسب حب الجند وحب الفقهاء والعلماء والمشايخ ، كما كسب أيضا محبة الشعب ٠ فقد كان يجالس ويلاطف المساكين ويرحم الصغير ويوقر الكبير ، ويعطف على الأرملة واليتيم ، وينصف المظلوم من الظالم حتى يرد الحق إلى مكانه ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم (٦)٠ كما

---

(١) رجب محمد عبدالحليم « دكتور » : مرجع سابق ، ص ١٧٠ ٠

(٢) عرب فقيه : مرجع سابق ، ص ١٧ ٠

(٣) المرجع السابق ، ص ١٧ ٠

(٤) رجب محمد عبدالحليم « دكتور » : مرجع سابق ، ص ١٧٠ ٠

(٥) عرب فقيه : نفس المصدر ، ص ٨٩ ٠

(٦) رجب محمد عبدالحليم « دكتور » ك المصدر السابق ، ص ١٧٠ ٠

قضى على قطاع الطرق فأمنت البلاد وانصلح حال الناس وانقادوا له وأحبوه ونسجوا حوله الأساطير وقالوا عنه « لا تسموه سلطان ولا أمير ولكن سموه إمام المسلمين ·· أو إمام آخر الزمان ·· وأنه هو الذى يصلح الله تعالى به بلاد الحبشة » (١)· ولذلك اشتهر بلقب الإمام دون غيره من الألقاب، ولم يتسم باسم السلطان أو الأمير (٢) ·

بعد أن تخلص الإمام أحمد جران من السلطان أبى بكر المناوئ له والظالم لرعيته ، وبعد أن ضمن حب الناس له ، أخذ يجمع القبائل تمهيدا للرد على الأحباش · وقد ساعده على ذلك أن الحركة الإسلامية كانت قد اكتملت وآتت ثمارها بين قبائل الصومال والعفر منذ نهاية القرن التاسع الهجرى /الخامس عشر من الميلاد ·

وسرعان ما أعلن رفضه لدفع الجزية لملك الحبشة وعندئذ أصبح قيام الحرب بينهما أمرا لا مفر منه ، وعندما تحركت الحبشة واجتاحت سلطنة عدل، تصدى لها الإمام أحمد وهزمها شر هزيمة ، وعندئذ اشتعلت فى نفوس المسلمين حماسة الجهاد فى سبيل الله والتى كانت كامنة فى نفوسهم وقتا طويلا · ومنذ ذلك التاريخ وانتصارات الإمام سلسلة متصلة· فقد استولى فى سنة ١٥٣١م على دوارو وشوا ثم الأمهرا ولاستا فى سنة ١٥٢٣م واستولى فى طريقه على السلطنات الإسلامية بالى وسيدامو وجوراجى ·

---

(١) رجب محمد عبدالحليم « دكتور » : نفس المصدر السابق ، ص ١٧١

(2) The Combridge History of Islam, Vol 1. P. 385.

وقد اتسمت غزواته بالسرعة والمفاجأة والحماس والشدة وما أن جاءت سنة ١٥٣٥م حتى كان الإمام أحمد قد سيطر على وسط الحبشة وجنوبها وبدأ فى غزو مقاطعة تيجراى التى دانت له ، بالرغم مما بذلته من مقاومة عنيفة ضده ، وقد امتدت سلطته إلى شواطئ البحر من الشرق حتى مدينة كسلا من الغرب ٠

لقد جمع الإمام أحمد منذ حداثة سنه بين المواهب السياسية والجندية وكان عاقدا العزم على القضاء على المملكة الحبشية، وكان هو الزعيم الذى قدر له أن يعيد إنشاء القوة السياسية والعسكرية للمسلمين فى جنوب شرق الحبشة حيث أدت فتوحاته إلى بسط سلطانه على ثلاثة أرباع أراضى المملكة الحبشية ٠

وقد لد الإمام أحمد سنة ١٥٠٦م فى بلدة (دعكه) بمقاطعة هوبات Hobat فى سلطنة عدل وهو من أصل عفرى كما تؤكد المصادر العفرية ٠ كما تشير بعض المصادر الصومالية بأنه من أصل صومالى وإن كان فى الأرجح أنه من القبائل العفرية كما تدل الشواهد على ذلك ٠ وتجدر الإشارة إلى أن الأستاذ الكبير والكاتب القدير الزميل أحمد برخت ماح الصومالى ينسبه أبا وأما إلى الصومال فى كتابه (وثائق عن الصومال والحبشة وإريتريا) (١)٠

واعتمد الإمام أحمد فى جهاده ضد الأحباش على القبائل العفرية والصومالية ٠ وكان العفر يشكلون غالبية جيشه ، يخلصون له إخلاصا

---

(١) أحمد برخت ماح : وثائق عن الصومال والحبشة وإريتريا ٠

منقطع النظير فى الجهاد ضد الأحباش، لدرجة أن عرب فقيه وصفهم (بانهم أهل الغزو والجهاد الأصلى المعتمد عليهم فى القتال) (١) . وخاصة بعد أن دخلت تلك القبائل فى الإسلام وانفعلت بحركة الجهاد انفعالا قويا ، وأضافت لهذه الحركة ما كانت تمتاز به تلك القبائل البدوية من قوة الشكيمة وصدق العزيمة وشدة المراس ، وأصبحت هى القوة الإسلامية الرئيسية فى منطقة القرن الإفريقى فى ذلك الوقت ، وكانت بحق عماد حركة الجهاد التى قادها الإمام أحمد بن إبراهيم ضد الأحباش (٢) .

وقد عرف الإمام أحمد بن إبراهيم بالورع والتمسك بالدين ، فاستغل الأتراك العثمانيون هذا الورع وهذه التقوى عند شيخنا الإمام واقنعوه بأن إقامة دولة إسلامية فى الحبشة من شأنه أن يجعل البحر الأحمر بحيرة إسلامية آمنة ، وأنه إذا اقتنع الإمام بهذه الفكرة فسوف يمدونه بالمدافع والبنادق وبعض الجند لتدريب رجاله على استعمال هذه الأسلحة الجديدة .

وكما تقدم ذكره فإن الإمام أحمد بدأ بتوطيد مكانته لدى القبائل الصومالية والعفرية ، وذلك بفض المنازعات بين القبائل العفرية والصومالية وتوحيد صفوفها والعمل على مشاركتها فى الجهاد . وبالفعل أنشأ الإمام قوة ضاربة من العفريين والصوماليين تحت راية الجهاد فى سبيل الله . وكان كثير من قواد الإمام من قبائل الحرله و (المرساى) مثل الأمير مجاهد والأمير حيسمانور والجراد شمعون والجراد برهان وعلوشى بن الهجين وخالد

---

(١) عرب فقيه : مرجع سابق .

(٢) رجب محمد عبدالحليم « دكتور » : مرجع سابق ، ص ١٧١ .

والوردى الذى كان دليلا للإمام فى الحبشة · وكان هؤلاء القواد يتنافسون مع قواد الصومال فى سرعة الزحف عند الهجوم على بلاد الحبشة حتى وصفهم (عرب فقيه) : (بأنهم صناديد الأبطال) [1] وكان جيش الإمام أحمد إبن إبراهيم إضافة إلى العفر والصومال والعرب خاصة الحضارم الذين خاضوا معه القتال فى شجاعة نادرة وكانوا دائما فى مقدمة صفوفه وكانوا يضربون بالبنادق والمدافع ويصنعون له السفن التى يجيدون صناعتها ·

فكان يقسم جيشه إلى ثلاث فرق منظمة ووضع كل القبائل من أصل واحد فى فرقة واحدة وهى كالآتى :

١ - قبائل الحرلّـــه :

جعلها فى الميمنة وعين قائدها ابن خالته سلطان محمد ·

٢ - قبائل المرساى (العفرية) :

وهم أهل الغزو والجهاد والمعتمد عليهم فى القتال فقد جعلهم فى القلب وهو على رأسهم وأمرهم بالثبات وعدم التفرق ·

٣ - قبائل الصومال :

وجمعها فى الميسرة وعين قائدها (منان بن عثمان) [2] ·

---

(١) عرب فقيه : مرجع سلبق ·

(٢) أمين توفيق الطيبى « دكتور » : الحبشة عربية الأصل والثقافة ، ليبيا - طرابلس عام ١٩٩٣·

وقد أدت روح الجهاد التى سيطرت على جند المسلمين إلى التفانى فى القتال ؛ لأنهم لم يكونوا يقاتلون ضد الأحباش لا بكثرة ولا بقوة بل بالعزم والصمود والعقيدة الإسلامية التى كانت تملأ قلوبهم ٠

وعلى إثر حملات متوالية قام بها الإمام فى السنوات الست التالية، تمكن من السيطرة على معظم الحبشة كما ذكرنا آنفا، كما استعان بالأتراك فى اليمن فأمدوه بنحو مائتى جندى مزودون بالأسلحة النارية التى لم تكن معروفة فى القتال فى القرن الإفريقى وفى الحبشة ، ففر الأحباش أمام قوات الإمام كهشيم تذروه الرياح ٠

وكان الإمام أحمد بن إبراهيم ، الملقب « بجران » و « الغازى » (١٥٠٦-١٥٤٢) من أبرز الزعماء الدينيين المناهضين للسياسات السلمية التى درج عليها سلاطين أسرة سعد الدين فى العمل على حل نزاعهم مع ملوك إثيوبيا بالطرق السلمية ، والتى أدت أحيانا إلى دفع إتاوة معلومة لهم ٠ وكان الإمام أحمد فى بادئ الأمر فارسا مقداما تحت إمرة الجراد أبون الذى أحبه واصطفاه لما لمسه فيه من شجاعة فائقة وبراعة عقل راجح فى المشورة وبعد مقتل الجراد أبون على يد أبى بكر بن محمد بن أزر سلطان عدل، عمل الإمام أحمد على جمع أنصاره ومعاونيه خاصة من بين أتباع الجراد أبون الراحل ومن الموالين للإمام محفوظ صاحب زيلع بعد أن أتم زواجه من ابنة هذا الأخير ٠ فبينما سمح الإمام أحمد لأفراد أسرة سعد الدين بالاستمرار فى الحكم بشكل صورى ، فإنه قد اتخذ لنفسه منحى مخالفا ، حيث نذر نفسه ومجهوده للمهام التى اعتقد بأن المولى سبحانه وتعالى قد بشره بإنجازها ألا وهى غزو بلاد

المسيحية ونشر الدين الإسلامى فى ربوعها ٠

خرج الإمام أحمد بن إبراهيم فى نفر من أتباعه غازيا لإثيوبيا لأول مرة فى عام ١٥٢٧م ، وقد رجع منصورا ومعه الكثير من الغنائم٠ وكانت هذه الغزوة التى حدثت فى أيام حكم الإمبراطور الإثيوبى لبنا دنجل (Lebna Dengil) (١٥٠٨-١٥٤٠م) بداية لسلسلة من الحروب الطاحنة التى استمرت خمسة عشر عاما ٠ وقد كان لدعوة الإمام أحمد وإعلانه الجهاد ضد الإثيوبيين المسيحيين فعل السحر فى نفوس المسلمين بعد الاضطهاد والإذلال الذى تعرضوا له نتيجة لخضوع حكامهم لسيطرة ملوك إثيوبيا المسيحيين ٠ لذا لاقت دعوته قبولا لا نظير له من قبلهم ، وانضم المحاربون إلى صفوف جيوشه فى حماس بالغ ٠ وبعد أن جمع حوله جميع القوات المسلمة قام الإمام أحمد بإطلاقها على بلاد إثيوبيا المسيحية (١) ٠

بدأت الجيوش الإسلامية باكتساح إقليم شوا حيث تمكنت من إلحاق شر هزيمة بجيش لبنا دنجل فى معركة شمبرى كورى عام ١٥٢٩م٠ ثم بعد ذلك تقدمت نحو الشمال وتمكنت من بسط سيطرتها على إقليمى أمهرا ولاستا بحلول عام ١٥٣٢م٠ كما عبرت وحدات أخرى من جيوش الإمام نهر الأبادى (النيل الأزرق) واكتسحت إقليم قوجام كله، ثم واصلت مسيرتها عبر سهول دمبيا متجهة نحو غندار ٠ وعندئذ هرب لبنا دنجل وقليل من أعوانه بحثا عن ملجأ يلجأون إليه، وظل متنقلا من مكان إلى آخر ، والجيش الإسلامى

---

(١) الأمين عبدالكريم : مرجع سابق ، ص ٥٤ ٠

يتعقبه. وقد أرسل الإمام أحمد بعدها بقية جيوشه لفتح بقية أجزاء البلاد . وكان نتيجة ذلك أن استولى المسلمون على أقاليم بالى وقراقى وهادية وسيدامو وغيرها من البلاد الواقعة جنوب شوا . كما أوفد الإمام أحمد الولاة إلى البلاد التى تم فتحها لتنظيم أمورها وتحصيل الجزية وتقسيم الغنائم. وفى عام ١٥٣٤م قاد الإمام أحمد جيشه غازيا لإقليم تجرى فى أقصى الشمال. وبالرغم من وعورة المنطقة ومقاومة أهل الإقليم الشديدة فقد تمكن المسلمون من احتلال مدينة أكسوم التاريخية حيث عملوا على تخريبها وحرق أديرتها وكنائسها والاستيلاء على الكنوز والنفائس التى وقعت بين أيديهم .

وما لبث أن لجأ طرفا الصراع لطلب العون الخارجى لتدعيم موقفهم، فقد اتصل الإمام أحمد بالأتراك العثمانيين فى اليمن الذين أمدوه بالمدافع والبنادق والجنود المدربين على استعمالها. واستنجد الإثيوبيون بالبرتغاليين الذين كانوا فى ذلك الحين قد بسطوا نفوذهم على ساحل إفريقيا الشرقية ودخلوا فى مواجهة مع العثمانيين بغرض السيطرة والتحكم فى تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندى (١). ومات لبنا دنجل عام ١٥٤٠م بينما وصلت النجدة البرتغالية فى عهد خليفته جلاوديوس (Glawdewos) الذى حكم ما بين

---

(١) فى شأن بداية العلاقات بين البرتغال وإثيوبيا بهدف العمل سويا للقضاء على النفوذ الإسلامى فى البحر الأحمر وشواطئ إفريقيا والمحيط الهندى ، راجع :

Francsco Alvoraz : Norrative of the PortugeseEmbassy to a Byssinia During the Years 1520 - 1627, Trans. by Lord Stanley of Alderler (1881) J.S. Trimingham; Op. Cit., PP. 76-77. 82-83, 84.

أعـوام ١٥٤٠م و ١٥٥٩م ٠ وقـد تـكونت تلك الـنجدة مـن أربعـمائة مـن الجند البرتغـاليين المسلحين بالأسلحة النارية تحت قيادة كروستـوفر داجاما ومـعهم بعثة كاثوليكية تبشيرية مـن اليسوعيين ٠ وقد كان لإدخال تلك الأسلحة لأول مـرة فى المنطقة أثر فـعال فى تحديد نتـائج القتـال ٠ فقـد تمكن الإثيوبيـون إثر معـاونة البرتغـاليين لهم من هزيمة الجـيوش المسلمـة فى موقـعتين وقعتا عام ١٥٤٠م، وإن كـان وصـــول الجند الأتراك ومـشـــاركـتـهم فـى القـتـال إلـى جـانب المسلمين نتج عنه هزيمة ساحقة للإثيوبيين المسيحيين وحلفائهم البرتغاليين، وقـد قتل خـلال المعركة كرسـتوفـر داجـاما ٠ ولسـبب لا يزال غامضا صـرف الإمـام أحمـــد الجنود الأتراك الـذين عـاونوه وأرسلهـم إلى بلادهـم ٠ وأخـيـرا استشـهد الإمام أحمد فى الخامس والعشرين من فبراير عام ١٥٤٢م وهـو يقاتل جيشا إثيـوبيا يساعـده البرتغاليون ٠ وكان اسـتشـهـاد الزعيم الروحى لحـركة الجـهاد الإسـلامية نذيرا باضـمـحـلال الحـركة التى قـامت على قـوته وإرادته، إذ سرعان ما تفرقت جموع المقاتلين وتشتت شملهم ٠

وقـد حاول الأمـير نـور بن مجـاهـد – ابن أخت الإمـام أحمـد وخليـفتـه فى قيادة حركة الجهاد الإسلامية – أن يجمع شمل بقية أعوان الإمام أحمد لمواصلة الحرب ضـد الإثيوبيين المسيـحيين ، لكن مـحاولتـه تلك منيت بالفشل٠ وبـعد عدة معارك تأرجـحت خلالها كفتا النصر والهـزيمة بين الطرفين وسقط أثنائها الإمبـراطور جلاوديوس صريعا ، هـزم نور بن مجاهد أخيـرا وفر ملتجـئا إلى حاكم مصـوع التـركى ، تاركا إدارة شئون هـرر لأحد القادة وهـو الأمـير عثمان٠ على أن سـلطنة هـرر أخـذت تضـعف وتضـعف وتـقلصـت حـدودها من جـراء

هجمات قبائل القالا الذين خربوها واخضعوا سلاطينها تحت نفوذهم ورحمتهم · وبنهاية القرن السابع عشر لم تكن هنالك قوة إسلامية قادرة على لَمّ شمل المسلمين الذين انهكت قواهم من جراء الحروب المتعددة التى خاضوها كما صارت بلادهم خرابا (١) ·

(١) الأمين عبدالكريم : مرجع سابق ، ص ٥٦ ·

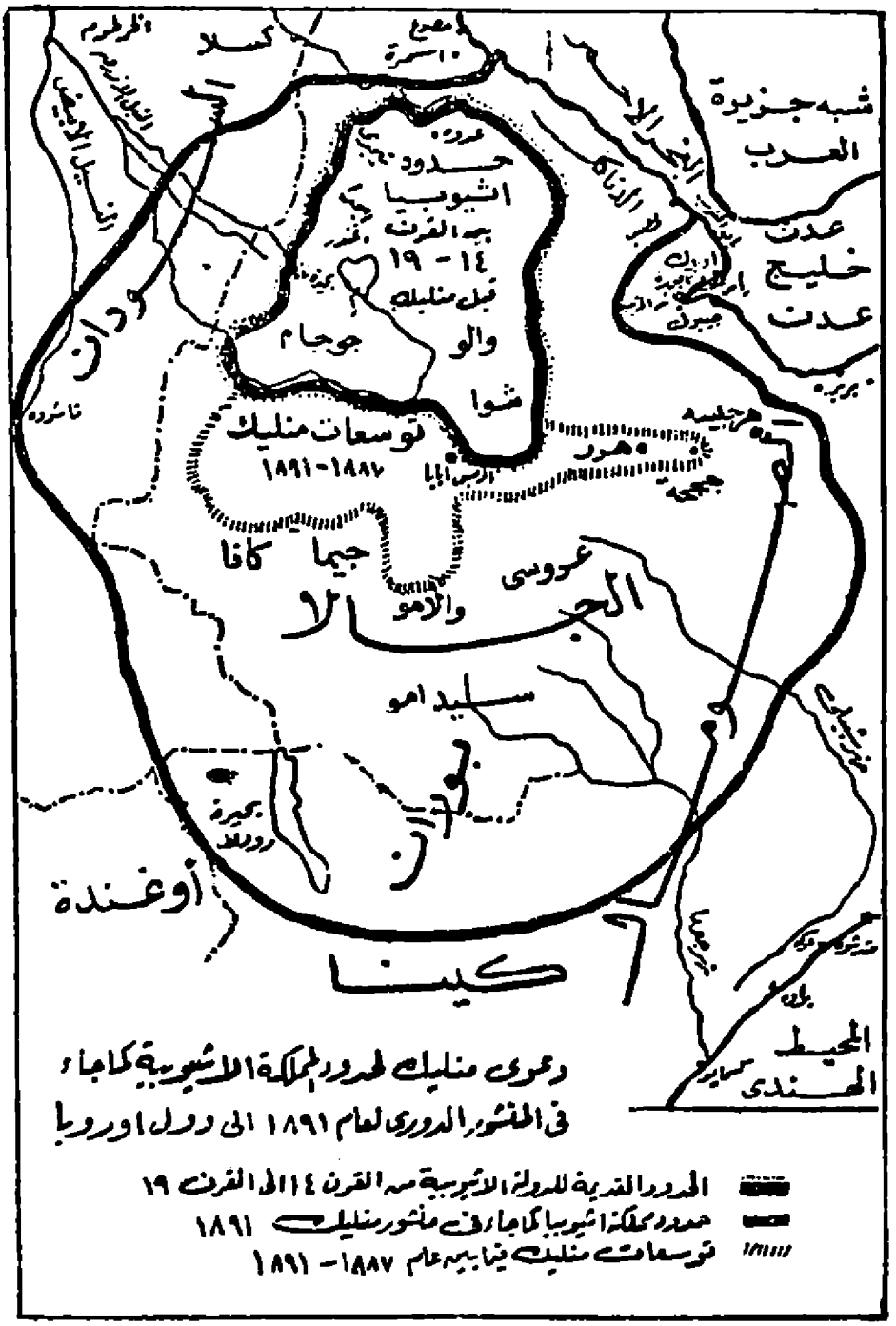

حدود الدولة الاثيوبية من القرن ١٤ الى القرن ١٩
حدود مملكة اثيوبيا كما جاءت في منشور منليك ١٨٩١
توسعات منليك فيما بين عام ١٨٨٧ - ١٨٩١

حدود منليك لحدود المملكة الاثيوبية كما جاءت في المنشور الدوري لعام ١٨٩١ الى دول اوروبا

(خريطة رقم ٣)

٤ - الآثار التي نتجت عن حركة الجهاد :

أجمع المؤرخون على أن غزوات المسلمين هذه كان لها أثر كبير فى ازدياد انتشار الإسلام فى ربوع البلاد الإثيوبية والمناطق المجاورة لها · فقد كان من بين الذين اتخذوا من الغزوات الإسلامية فرصة الخروج عن طاعة إثيوبيا ونبذ المسيحية وإعلان إسلامهم من جديد، أعداد كبيرة من الزعماء ورؤساء القبائل والعديد من أتباعهم المسلمين فى الأصل والذين تنصروا لأسباب دنيوية · ومن البديهى أن فرض الإسلام على بعض القوم المسيحيين قهرا بحد السيف لم يكتب له أن يدوم لأمد طويل ، وإن كان البعض ممن اعتنق الدين الإسلامى أثناء تلك الغزوات ظلوا متمسكين بعقيدتهم إلى يومنا هذا (٢) ·

ومما لاشك فيه أن الحروب التى دارت بين المسلمين والمسيحيين قد أوقعت الكثير من الدمار والخراب ببلاد كل من الطرفين ، وتمثل ذلك فى إزهاق الآلاف من الأرواح، وخراب العديد من المدن والمنشآت الرئيسية · وقد اتسمت هذه الحروب بالقسوة البالغة التى اتبعها كل طرف ضد الطرف الآخر · فقد حرص الطرفان على تخريب وحرق المدن التى استولوا عليها، وخاصة أماكن

---

(٢) عرب فقيه :مصدر سابق·

J.S. Trimingham : Op. Cit., P. 90
M. Perham : Op. Cit., P. 42' E. Ullendroff: Op. Cit., P. 75.

العبادة بعد نهب كنوزها وقتل أكبر عدد من رجال الدين وغيرهم من القادرين على الحرب وسبى النساء وبيعهن فى أسواق الرقيق ٠ وقد كان الخراب والدمار الذى لحق ببلاد الإثيوبيين المسيحيين هائلا ومؤثرا ، فمجرد ذكر اسم الإمام أحمد بن إبراهيم (جرن) قد ظل إلى يومنا هذا يثير فى أذهانهم الرعب والهلع والخوف من تكرار ما حدث فى الماضى ويذكرهم بقرب الهلاك (١) .

وقد ترتب على تدخل البرتغاليين والعثمانيين فى شئون إثيوبيا آثارا مريرة٠ فبعد أن ساعد البرتغاليون إثيوبيا عسكريا فى حروبها ضد القوى الإسلامية قاموا بمحاولة تحويل أهل البلاد وحكامها عن المذهب الأرثوذكسى الذين كانوا يعتنقونه وحاولوا قطع علاقة كنيستهم بالكنيسة القبطية المصرية وإتباعها للبابوية الكاثوليكية بروما ٠ ولتحقيق هذا الغرض أرسلت البرتغال العديد من البعثات التبشيرية اليسوعية التى صادفت نجاحا محدودا فى بادئ الأمر ٠ وقد كان ذلك النجاح مؤقتا إذ واجه اعتناق الأباطرة ذادنجل (Zadengil) وسيسنيوس (Susenyos) – الذى حكم ما بين (١٦٠٧–١٦٣٢م) – للعقيدة الكاثوليكية ، ومحاولتهما العمل على نشر المذهب الجديد ، معارضة عنيفة من قبل رجال الدين الإثيوبيين٠ وما لبث أن أدت هذه المعارضة إلى نشوب حرب أهلية مدمرة، انتهت بمقتل ذادنجل وإجبار سيسنيوس على التنازل لإبنه عن

(1) Affay R.S. Vol. 68 N. 270, Jamuary , 1969, P. 50
See also : J. Markakis: Op. Cit., P. 63.

العرش·كما تم طرد البعثات التبشيرية الكاثوليكية من البلاد وطرد الذين تحولوا للمذهب الجديد والبطش بهم · وأعقب ذلك أن أغلقت إثيوبيا أبوابها فى وجه كل الأوروبيين دون تمييز للمذاهب التى اعتنقوها، الأمر الذى دعم عزلة إثيوبيا عن دول العالم الأوروبى المسيحى، حيث دامت هذه العزلة حتى منتصف القرن التاسع عشر · وحتى عندما سمح لبعثات التبشير الأوروبية بالعمل فى البلاد فقد منعوا منعا باتا من التبشير وسط الإثيوبيين المسيحيين بل ظلوا موضع شبهة ومظنة بالغبن (١) ·

وفى الجانب الآخر فقد تمكن الأتراك العثمانيون من الاستيلاء على مصوع وحرقيقو عام ١٥٥٧م ، وألحقوها مع سواكن باشوية جدة ، وأطلقوا عليهم جميعا «ولاية الحبش» · ثم بسطوا نفوذهم بعد ذلك بقليل على زيلع وجعلوها تابعة لوالى اليمن · ونتيجة للاتفاقات المبرمة بين الباب العالى ومحمد على والى مصر وحلفائه، فقد أحيلت المناطق الخاضعة لسيطرة العثمانيين إلى الإدارة المصرية · وفى عام ١٨٧٥م تمكنت مصر من فتح سلطنة هرر التى كانت فى ذلك الوقت تحت إمرة الأمير محمد بن عبدالشكور· وهكذا وجدت إثيوبيا المسيحية نفسها مجابهة من جديد بقوى مسلمة توسعية تسعى لبسط نفوذها نحو الداخل (٢) ·

---

(١) زاهر رياض : مصدر سابق ، ص ٩٩–١٠٠ – ١٠٢ ·

(٢) انظر كذلك شوقى عطاالله الجمل « دكتور » : مصدر سابق ، ص ١٠٧ – ١٠٩ ، ١٢٦ ·

وتجدر الإشارة إلى أن الحروب العنيفة التى دارت بين المسيحيين والمسلمين قد أدت إلى إنهاك قوى الطرفين على السواء مما شل من قدرتهما للتصدى لقبائل الأوروموـ (القالة) التى تدفقت من الجنوب الشرقى· ففى الفترة ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر تمكنت هذه القبائل من احتلال الجزء الأكبر من جنوب إثيوبيا الحالى وإزاحة معظم قبائل السيداموا التى كانت تقطن به · كما استقرت جماعات منهم فى المناطق المحيطة بهرر، وفى إقليم شوا وقوجام، بينما نزحت مجموعات أخرى نحو الشمال ، وقد انتهى بها المطاف أخيرا إلى الاستقرار فى قلب مملكة إثيوبيا نفسها · غير أن هذه القبائل لم تشكل خطرا داهما فى نظر الإثيوبيين المسيحيين مثل القوى الإسلامية نظرا لتفرقها وفقدانها الأيديولوجية التى تتمتع بها [1] ·

٥ - ازدياد النفوذ الإسلامي من جديد :

وبالرغم من الجهد المضنى الذى بذل فى سبيل احتواء انتشار قبائل الأوروموـ (القالة) تمكنت إثيوبيا من إعادة توحيد نفسها وتوطيد سلطة أباطرتها ، وإن كان ذلك لم يدم طويلا · فقد تضافرت عدة عوامل على دفع البلاد إلى عهد جديد ببداية القرن الثامن عشر الميلادى · ولم تكن الحروب التى

---

(١) الأمين عبدالكريم : مرجع سابق ، ص ٥٧ ·

قاستها إثيوبيا والتى استمرت لثلاثة قرون وما لحق من جرائها من خراب ودمار وإنهاك للقوى هى السبب الوحيد الذى دفع البلاد إلى حالة الضعف والفوضى اللذين عانت منهما · ولعل العزلة التامة عن العالم الخارجى والتى فرضتها إثيوبيا على نفسها كانت مدعاة لذلك الضعف ، إذ حرمتها من الدعم المادى والثقافى من قبل العالم المسيحى الخارجى · كما لا يخفى علينا أن إبعاد المبشرين الكاثوليكيين كان نتيجته حتمية تسلط رجال الدين الإثيوبيين على مظاهر الحياة العامة وتدخلهم المتزايد فى الشئون السياسية لإثيوبيا · كما عانت الكنيسة الإثيوبية نفسها من الانحلال عامة ومن تعدد وتنافر المذاهب الدينية · كما كان لتدفق قبائل الأورومو (القالة)وغزوهم للبلاد منذ منتصف القرن السادس عشر ، وما أحدثوه فيها من تخريب دور فعال فى تفاقم هذه الفوضى (١) .

وقد ظهرت ملامح هذه الفوضى فى أكثر من ناحية من نواحى الحياة العامة فى إثيوبيا ، وإن كان أعظمها شأنا هو الضعف والوهن المتزايد الذى أصاب العسكرية والسلطة السياسية للأباطرة · فقد أخذت العوامل الإقليمية تتغلب على حساب السلطة المركزية مما أدى إلى تركيز السلطة الفعلية فى أيدى حكام الأقاليم من نبلاء تجراى وشوا وقوجام وغيرهم· ونتيجة ذلك

(1) Bahays History of the Galla in Some Records cited above Trimingham : Op. Cit., PP. 91-93-94 ; J. Markakis. Op. Cit., P. 15-16.

أصبح الأباطرة حكاما اسما فقط حيث لا يملكون من الأمر شيئا· ودفع هذا التطور الأباطرة الإثيوبيين لطلب العون والدعم من زعماء ورؤساء قبائل الأوروموو (القالة) المقيمين بالمناطق المجاورة لعاصمتهم غندار · وهم قبائل اليجو والولو والريا والأزينو · ومما زاد من خطورة الأمر أن هذه القبائل بالذات كانت قد اعتنقت الإسلام لا المسيحية الأرثوذكسية ، فقد كانت الديانة الأخيرة كانت تمثل فى نظرهم عقيدة أعدائهم الإثيوبيين· كما أمدهم اعتناقهم للإسلام بالفرصة لادعاء مآثر تاريخية مجيدة يردون بها على ما يدعيه الإثيوبيون المسيحيون لأنفسهم · ولأول مرة فى تاريخها وجدت هذه القبائل فى اعتناق الدين الإسلامى العامل الأيديولوجى الفعال الذى كانوا يفتقرون إليه فى السابق · وقد عمد بعض زعمائهم إلى اعتناق الديانة المسيحية الأرثوذكسية، لأسباب سياسية فى المقام الأول ، وقد قاموا أحيانا بتزويج بناتهم للأباطرة الإثيوبيين لكنهم ظلوا يعتمدون فى قوتهم وعظم نفوذهم على سند ودعامة رجال قبائلهم المسلمين (١)·

ففى الفترة ما بين عام ١٧٦٩ وعام ١٨٥٥م والتى عرفت «بعصر الفوضى الكبرى» استطاع الرأس على زعيم قبيلة اليجو المسلمة مع أفراد أسرته أن يسحقوا قوة ونفوذ بلاد التقراى والأمهرا المسيحيين وأن يركزوا

(1) Trimingham : Op. Cit., PP. 101, 107, 110 - 112, J. Markakis : Op. Cit., PP. 18, 64; Magir : Op. Cit., PP. xxiii - xxv, 27.

السلطة فى أيديهم · ولقد استتب لهم الأمر بعد أن نجح كبارهم فى تنصيب أنفسهم أوصياء على الأباطرة المقيمين فى العاصمة غندر ، والذين جعلوا من الأباطرة دُمًى فى أيديهم يحركونها كيف شاءوا · وقد تميزت هذه الفترة بالدسائس والمؤامرات والفتن المتواصلة وتوالت الحروب سجالا بين الأوصياء على الأباطرة وأتباعهم من القبائل المسلمة من جانب ،وبين نبلاء التجراى والأمهرا وسندتهم من الإثيوبيين المسيحيين من الجانب الآخر · وكان من نتيجة ذلك أن قسمت البلاد إلى عدة أقاليم ومقاطعات شبه مستقلة ، يقوم على أمرحكم كل منها أكثر من نبيل أو رأس ، وقد اجتهد كل منهم فى محاولة اختلاق أنساب إنتمائية للأسرة السليمانية · وبالتالى إثبات حقه الشرعى فى وراثة العرش الإمبراطورى ·

وفى خلال هذه الفترة زار إثيوبيا الرحالة الأسكتلندى جيمس بروسى الذى ترك لنا وصفا مفصلا لرحلته ولحالة الفوضى الداخلية المزرية لإثيوبيا أثناء إقامته بالبلاد والتى امتدت فيما بين عام ١٧٦٩م و ١٧٧٢م · ونستطيع من خلال ذلك الوصف أن نستشف الكثير من حالة الفوضى التى عمت إثيوبيا حينئذ (١) ·

---

(1) James Bruce : Travels to Discover the Sources of the Nile.

ونتيجة للتدهور السياسى الذى انتاب إثيوبيا فى « عصر الفوضى الكبرى » وازدياد نفوذ القوى المسلمة فيها ، سنحت فرصة ذهبية لتزايد انتشار الدعوة الإسلامية فى الأقاليم الخاضعة للسلطة الإثيوبية والمناطق المجاورة لها · فقد تحول العديد من القبائل الرعوية القاطنة فى شمال وشمال شرق إقليم إريتريا وفى السهول المطلة على شواطىء البحر الأحمر الغربية من المسيحية الأرثوذكسية إلى الإسلام · ونذكر من ضمن هذه الفئة الحباب والبلين والماريا وخلافهم ممن كانوا يدينون سابقا بالديانة المسيحية لعدة قرون(١) ·

وكذلك يرجع الفضل فى ازدياد انتشار الإسلام فى إثيوبيا والأقاليم المجاورة لها أثناء القرن التاسع عشر الميلادى إلى عدة عوامل خارجية وداخلية كان من أبرزها ؛ انتعاش حركة التجارة فى منطقة البحر الأحمر والقرن الإفريقى بصفة عامة، وسيطرة المسلمين على حركة ومسيرة القوافل التجارية · وقد شكل تغلب القوة الإسلامية الخارجية ممثلة فى استيلاء محمد على باشا على السودان وعلى الحجاز لبعض الوقت، ونجاح الدعوة الوهابية فى الحجاز، وتوسع النفوذ التركى وامتداد سيطرته وإدارته على معظم الموانى المطلة على شواطئ البحر الأحمر الغربية وعلى ما تبقى من إمارة هرر الإسلامية عاملا آخر لا يقل أهمية عن سابقه ·

---

(١) الأمين عبدالكريم : مرجع سابق ، ص ٥٩ ·

وقد تزامن تزايد موجة انتشار الدعوة الإسلامية فى ربوع الدولة الإثيوبية نفسها مع انتشار الإسلام فى الأقاليم الجنوبية الشرقية الغربية التى لم تخضع لسيطرة الأباطرة الإثيوبيين إلا فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى. فبالرغم من أن إمارة هرر الإسلامية كانت قد تخطت قمة مجدها فى أيام حركة جهاد الإمام أحمد بن إبراهيم وخليفته نورين مجاهد وتقلص نفوذها سياسيا وعسكريا ، فإن ما تبقى منها ظل محافظا على مكانة مدينة هرر نفسها بوصفها مركزا مهما للتجارة ووسيط لمجرى القوافل التجارية بين المناطق المحيطة بها وموانى البحر الأحمر الغربية . ولقد حافظت مدينة هرر ودعمت مكانتها بوصفها قاعدة لتجميع خبرة العلماء والفقهاء، ومركزا مؤثرا فى نشر الدعوة الإسلامية .وقد ساعدت الفترة القصيرة التى خضعت فيها مدينة هرر والأقاليم المجاورة لها للحكم التركى (١٨٧٥م – ١٨٨٥م) على ازدياد نفوذها فى نشر تعاليم الإسلام وسط قبائل الأوروموالمجاورة لها . وذلك بفضل توثيق ارتباطها بالعالم الإسلامى الخارجى، وتشجيع وفود العلماء والفقهاء إليها، وبناء المزيد من المساجد والمدارس الإسلامية . كما زاد من قدرتها بوصفها مركزا للإشعاع ونشر الدعوة الإسلامية وجود العديد من أضرحة الفقهاء الذين ذاع صيتهم لما عرفوا به من كرامات وورع وتقوى ، ولقربها الجغرافى من ضريح الشيخ حسين باليلى فى سهل قوبا بالقرب من نهر الوبى شيبيلى كما ذكرنا سابقا (١) .

---

(1) HJ.S. Trimingham, Op. Cit., PP. 120-121;
M. Perham : Op. Cit., PP. 308-310.

كما أحرزت الدعوة الإسلامية أيضا تقدما ملحوظا وسط مواطنى ممالك الأوورمو (القالة) الخمس الواقعة حول حوض نهر الجيبى فى الجنوب الغربى، وقد تم ذلك بفضل توافد مجموعات عديدة من التجار الجبرتة والصوماليين المسلمين ومن تبعهم من العلماء والفقهاء عن طريق القوافل الرئيسية التى تربط الموانى الساحلية بالمنطقة · وقد أقام بعض هؤلاء هناك لفترات متفاوتة أو بصفة مستديمة منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلاديين ، ووجدوا من حكام وأمراء تلك الممالك الكثير من الترحيب بسبب نشاطهم التجارى والمنافع المادية التى تيسرت بفضلهم للملوك ومواطنى تلك الممالك · وقد ساعد على نجاحهم فى بث الدعوة الإسلامية طول إقامتهم بالبلاد، وما نعموا به من مكانة اجتماعية وحرية موفورة حتى أسلم على أيديهم الملوك والأمراء الذين تبعهم معظم العامة من الأهالى (١) ·

وهكذا منذ ذلك التاريخ – حوالى ١٥٢٣م – أحرز الإمام أحمد انتصارات عظيمة متوالية واجتاح مملكة الحبشة بأسرها حتى اتصل بالإمارات الساحلية فى مصوع وسواكن وإمارة الدجن فى حوض القاشى وبركة فى غرب إريتريا ونصب أحد الأمراء حاكما لحماسين ، واتصل بالسلطان الفونج فى سنار فى السودان (٢) ·

---

(1) Enrico, Cerulli: L'Islam Neiregni : Galla Infependenti, L. Africa Italiana, Vol, 35.

(٢) عثمان صالح سبى : تاريخ إريتريا ، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٨٤، ص ١٢٩.

كما سجل تفاصيل وقائعه شهاب الدين (الملقب بعرب فقيه) فى كتابه فتح الحبشة ، حيث واكب الإمام فى غزواته ٠

٦ - دور العفر والإمام أحمد بن إبراهيم في نشر الإسلام في منطقة القرن الإفريقى :

كما أوضحنا فى حديثنا عن اعتناق شعوب هذه المنطقة للإسلام وأهمهم العفر الذين يقطنون المواقع الاستراتيجية فى البحر الأحمر وباب المندب ، حيث كانت (معدر) (١) ممرا للفوج الأول من الصحابة رضوان الله عليهم إلى ملك الحبشة النجاشى ٠ ويرجع للعفر والساهو الفضل فى سلامة هذه البعثة وكان ذلك بداية نور الإسلام فى المنطقة العفرية منذ فجر الإسلام والتى عمها فيما بعد ٠ والشعب العفرى والصومالى لا يوجد بينهم من يدين بغير الإسلام ٠ والعفريون كلهم سنيون على مذهب الشافعية والحنفية ٠ وكما بيّنا آنفا زادت سرعة انتشار الإسلام بين العفرسكان المنطقة فى القرن الإفريقى بفضل الهجرات العربية ودورها فى نشر هذا الدين ، إضافة إلى العلاقات التجارية القوية التى كانت تربط بين بلاد العرب وسواحل البحر الأحمر ، وكانت مناطق العفر من أهم المناطق التى نفذ منها الإسلام إلى الهضبة الحبشية ٠

---

(١) (معدر) : هى الممر المائى للفوج الأول من الصحابة – رضوان الله عليهم – إلى مملكة الحبشة، وهى ميناء صغير يقع فى شواطئ البحر الأحمر الإريترى (منطقة عفرية) ٠

وتحمل العفر منذ ذلك التاريخ أعباء نشر الإسلام فى ربوع المنطقة حتى وصل الإسلام إلى عمق منطقة القرن الإفريقى كما أشرنا فى كيفية تأسيس الإمارات السبع فى الحبشة · وكانت كل هذه السلطنات لا تخلوا من العفريين، بل كان معظم سكانها - بجانب الصومال والعرب - عفريون· وقامت هذه السلطنات بدور كبير فى النشاط التجارى، كما أنها قامت بدور لا يستهان به فى تصديها لغزوات الأحباش بقيادة الإمام أحمد بن إبراهيم والذى أسلفنا ذكره فى المقدمة · وكانت سلطنة عدال Adal تحتل مكانة ممتازة فى المنطقة · وعندما غزا الأورومو جنوب إثيوبيا وهرر ، لجأت سلطنة عدال إلى وادى أوسا ولا يزال هذا الإقليم يتمتع بحكم شبه ذاتى فى إثيوبيا الحديثة فى إطار إقليم العفر ·

ودخلت هذه الممالك الإسلامية فى العصور الوسطى حروبا طويلة مع الأحباش تبادل فيها الطرفان النصر والهزيمة ، وقد انتهت بتبعية هذه الممالك إلى ملك الحبشة· وقد أخذ هذا الصراع طابعا دينيا متطرفا ؛ لأن الحبشة المسيحية فى ذلك الزمان كانت تشن دائما حروبا صليبية ضد هذه الممالك الإسلامية وخاصة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر وفى النصف الأول من القرن السادس عشر، حيث انتهى هذا الصراع النهاية المتوقعة له بعد أن تكاتف الغرب الصليبى مع ملوك الحبشة فى القضاء على الممالك الإسلامية ببلاد الزيلع · وكانت ممالك الزيلع الإسلامية تجاهد وتقاتل الأحباش واحدة بعد أخرى ، فإذا انهارت إحداها قامت دولة أخرى رفعت لواء المقاومة (١) ·

---

(١) أمين توفيق الطيبى « دكتور » : الحبشة عربية الأصل والثقافة . ليبيا ، طرابلس ، ١٩٩٣·

وكذلك تعددت الدول التى قادت الصراع ضد الأحباش ، فقد قامت أول سلطنة إسلامية أوفات (إيفات) وجمعت شمل الممالك الإسلامية الأخرى فى بلاد زيلع، بعدها استطاعت وأد الصراع عام ٨٠٥ هـ - ١٤٠٢م. ولما انهارت تلك الدولة فى ذلك العام أمام ضربات الأحباش حلت محلها سلطنة عدال الإسلامية فحمل لواء المقاومة الإسلامية طوال القرن التاسع الهجرى إلى القرن الخامس عشر الميلادى. ولما استكان السلاطين العدل للأحباش حمل الإمام أحمد بن إبراهيم الذى يلقبه العفريون بأحمد قوره (الأشول) لواء الجهاد واستطاع أن يتصدى لعدوان الأحباش ثم الهجوم عليهم فى عقر دارهم .

وفى سنة ٩٣٥ هـ إلى ست شهور (حسب تعبير صاحب فتوح الحبشة) فى أوائل سنة ١٥٢٩م أحرز الإمام نصرا حاسما على ملك الحبشة (لبنا دنقل) فى معركة كبرى هى معركة (صحبر كورى) Shebera Qure . وانقلبت الحبشة على أعقابها وكادت حركة الجهاد والتى قام بها الإمام أحمد أن تقضى على النصرانية فى الحبشة لولا النجدة البرتغالية التى انقذتها وهزمت جيش الإمام الذى استشهد قرب بحيرة تانا فى رمضان ٩٤٩ هـ - فبراير ١٥٤٣م وتفرق جنده بمجرد موته وانهار الحكم الإسلامى فى الحبشة (١).

١- نفس المرجع السابق .

وبعد هذه الكارثة التى حلت بجيوش المسلمين ودمرتها تجمعت بقايا قوات فرسانهم مجددا فى مدينة هرر وانتخبت نور بن مجاهد وهو ابن أخت الإمام أحمد أميرا سنة ١٥٥١م وقد قام بتعزيز قواته، واشتبك مع قوات الإمبراطور قلايدوس فى معركة انتصر فيها على قلايدوس وقتله فى ٢٣ مارس ١٥٥٩م وتوفى إثر إصابته بمرض الطاعون سنة ١٥٦٧م٠وفى هذه الفترة حدثت تطورات شهدتها منطقة القرن الإفريقى حيث شنت قبائل الأورومو (القالا) غارات شديدة على الأحباش المسيحيين والمسلمين على السواء ، مما دفع الإمام أحمد وهو أحد أفراد عائلة الإمام أحمد جرن (الأعسر) إلى نقل مقر سلطنته إلى واحة أوسا فى صحراء العفر (دناكل) تاركا رئاسة مدينة هرر إلى أخيه عام ١٥٧٧م ، وبدل لقبه بالوزير واستمرت الإمامة تحكم فى أوسا كما ذكرنا سابقا ٠

ويذكر السلطان على مرح سلطان سلطنة أوسا الحالى : أن سبعة عشر أماما حكموا فى أوسا وكان آخرهم الإمام سلمان ٠

وكانت هذه الحروب الكثيرة التى خاضها الإمام أحمد بن إبراهيم قد تسببت فى كثير من الخسائر فى الأموال والأرواح خصوصا بين قبائل العفر والصومال الذين اعتمد عليهما الإمام فى جهاده فى المنطقة ٠وهكذا يتضح لنا – من خلال سردنا لوقائع أحداث تاريخ هذه المرحلة – دور العفر فى نشر الإسلام فى المنطقة باذلين أرواحهم وأموالهم ، فالعفر لا يستهان بدورهم حاضرا ومستقبلا فى تاريخ المنطقة وتطورها سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ٠

ردود الفعل من جانب الإثيوبيين المسيحيين :

كان من الطبيعى أن يثير تحول الكثير من السكان الإثيوبيين إلى الإسلام ،وازدياد النفوذ الإسلامى فى المناطق المجاورة حفيظة أباطرة إثيوبيا وتخوفهم من مغبة اتحاد القوى المسلمة داخليا وخارجيا لتهديد أمن وسلامة بلادهم ٠

مما دفع أباطرة إثيوبيا والقائمين على أمور البلاد من النبلاء ورجال الكنيسة إلى التيقن من أن إتاحة الفرصة لازدياد النفوذ الإسلامى فى داخل البلاد وفى الأقاليم المجاورة لها ، سيؤدى فى نهاية المطاف إلى فنائهم القومى٠ كما أن الارتباط الوثيق بين مفهومهم للقومية الإثيوبية والديانة المسيحية الأرثوذكسية استبعد إمكانية الجمع بين الانتماء للقومية الإثيوبية واعتناق ديانة أخرى مخالفة للدين المعلن والرسمى للبلاد ٠ فقد حددت هذه العوامل أوضاع ومكانة المواطنين الإثيوبيين المسلمين سياسيا واقتصاديا واجتماعيا داخل الكيان الإثيوبى ، كما برزت اتخاذ سياسات معادية لمصالحهم من قبل السلطة الحاكمة ٠ وقد أحدثت هذه الهيمنة فجوة عميقة بين أتباع الديانتين فى وضعهم السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى ظل الدولة الإثيوبية ٠

فقد عانى مسلمو إثيوبيا من العديد من سياسات التفرقة منذ أمد طويل٠ كما حرم على المسلمين امتلاك الأراضى الزراعية إلا إذا منحت لهم بشكل رسمى من قبل الأباطرة أو حكام الأقاليم ٠ فالطريقة الوحيدة التى

كانت تمكن الإثيوبى المسلم فى الماضى من امتلاك أراضى زراعية هى طريقة الشراء، وقد كان ذلك نادر الحدوث فى إثيوبيا قبيل منتصف القرن الحالى. ولهذا لجأ المسلمون فى شمال إثيوبيا للحصول على الأراضى الزراعية عن طريق الإيجار التعاقدى لفترات زمنية معينة . وكذلك منع المسلمون من المشاركة فى تصريف شئون البلاد ومن شغل مناصب الدولة . فالمنصب الوحيد تقريبا الذى كان يتم اختيار شاغله عادة من وسط المسلمين هو منصب (نقاد رأس) أى رئيس التجار أو محصل الضرائب التجارية . ولذا فقد تركز نشاط المسلمين فى إثيوبيا فى العمل بالتجارة ومزاولة الحرف اليدوية ممثلا فى احتكار طبقة الجبرتة للتجارة فى البلاد حتى صار لفظ جبرتى مرادف للفظ مسلم فى تلك الفترة (١) .

اتخذ الإمبراطور تيدروس الثانى (١٨٥٥ – ١٨٦٨م) – بعد أن نجح فى التغلب على الأوصياء الأباطرة وسدنتهم من قبائل الأورومو المسلمة – سياسة تهدف إلى إعادة الوحدة للبلاد من جديد . وكان من الطبيعى أن يتخذ من الدين المسيحى الأداة التى اعتقد بأنها ستمكنه من تحقيق الهدف المنشود . فكان ذلك سببا فى انتهاجه سياسة عدائية صارمة ضد المواطنين الإثيوبيين المسلمين .ففى عام ١٨٦٤م أصدر مرسوما يجبر المسلمين فى إثيوبيا على اعتناق المسيحية الأرثوذكسية، ويعامل كل من يرفض الإنصياع للأمر معاملة الخارجين عن طاعة العرش الإمبراطورى . كما اندفع تيدروس الثانى فى مقدمة جيوشه يحارب قبائل الولو واليجو المسلمة، وأخذ يقتلهم دون

رحمة ويخرب ويحرق ديارهم ويجبرهم على اعتناق المسيحية الأرثوذكسية ٠ وكانت هذه القسوة التي تعرض إليها المسلمون هى السبب الذى دفع بأعداد كبيرة منهم للهجرة إلى السودان وبلاد الصومال وإلى إقليم هرر وممالك الجيبى فى الجنوب الغربى والتى كانت فى ذلك الوقت خارج سلطان مملكة إثيوبيا ٠

كما كان خليفة الإمبراطور يوحنا الرابع (١٨٧٢ - ١٨٨٩م) أكثر حماسا لتوحيد إثيوبيا تحت اللواء المسيحى الأرثوذكسى، بصورة أشد قسوة على مواطنى البلاد غير المسيحيين ٠ وكانت الدوافع التى وراء اتخاذ تلك السياسات نابعة من اعتقاد يوحنا الراسخ بتدعيم الوحدة الوطنية الداخلية لإثيوبيا تحت لواء عقيدة دينية موحدة وهى الديانة المسيحية الأرثوذكسية ٠

وقد أحدثت سياسات يوحنا المتشددة ضد المسلمين ردود فعل وسط قبائل الولو خاصة ، حيث أدت إلى قيام حركة جهاد الشيخ طلحة فى عام ١٨٨٤م والتى سرعان ما أخمدت ، كما أدت إلى اندلاع الثورة بعد مقتل زعيم الولو المسلم أمادى صادق، والتى استمرت لمدة عامين (١٨٨٥ - ١٨٨٦م) ٠ وبالرغم من أن الدوافع الرئيسية لهاتين الثورتين كانتا ذات صبغة محلية ، إلا أننا لا نستبعد احتمال التأثير غير المباشر لنجاح الثورة المهدية فى السودان فى إعطاء الأمل بالخلاص للمجموعات المسلمة المقهورة والمغلوب على أمرها بإثيوبيا ٠ ومن الغريب فى الأمر أن اندلاع القتال بين الجيوش الإثيوبية وجيوش المهدية فى الغرب فى عام ١٨٨٧، ومقتل يوحنا الثانى فى القتال ضد

الامبراطور
منيلك الثانى

الامبراطورة
لهايتـــو
قرينة الامبراطور
منيلك الثانى

جيوش المهدية عام ١٨٨٩م ، لم يصحبه المزيد من القسوة والعنف فى محاولة تنصير مسلمى إثيوبيا ٠

أما الإمبراطور منليك الثانى (١٨٨٩ – ١٩١٣م)الذى استولى على العرش بعد مقتل يوحنا فقد انتهج سياسة تتسم بالكثير من المرونة والواقعية حيال المسلمين الخاضعين لسلطة المملكة الإثيوبية٠ ولعل بعض ما يفسر ذلك كون منليك أكثر تسامحا من حكام شمال ووسط إثيوبيا فى التعامل مع مواطنيهم من غير المسيحيين الأرثوذكسيين ٠ وذلك لكثرة أعدادهم واعتماد الحكام عليهم فى تصريف شئون أتباعهم فى الدين ، وفى توثيق علاقات شوا التجارية مع العالم الخارجى٠ كما أن منليك قد حذا حذو أسلافه فى القيام بتوسيع حدود إقليمه نحو الجنوب منذ أن كان ملكا له ٠ وقد واظب على الاستمرار فى تلك السياسة بجهد خارق بعد اعتلائه العرش الإمبراطورى ، ونجح فى احتلال وضم جميع المناطق الجنوبية الحالية إلى المملكة الإثيوبية ٠ وقد كان مواطنو الكثير من تلك الجهات، مثل هرر وممالك الجبى فى الجنوب الغربى وسلطنة العفر ومنطقتى الأقادين وغيرها، يدينون بالدين الإسلامى٠ وبالرغم من أن المسيحية الأرثوذكسية ظلت هى الديانة الرسمية للبلاد فإن العمل على نشرها وسط المواطنين المسلمين لم يسع له بكثير من الجهد ٠ فقد تمت استمالة بعضهم تحت إغراء تقديم الألقاب والمناصب والأراضى إليهم ٠ وقد كانت أعداد من تنصروا من بين المسلمين قليلة جدا ، فالأهداف السياسية الرامية إلى عدم إثارة حفيظة المسلمين والاحتفاظ بولائهم

أملت على منليك الثانى انتهاج السياسة المرنة والمهادنة تجاه المسلمين فى إثيوبيا (١) ٠

وخلاصة القول إن النضال بين القوى المسيحية والقوى المسلمة – فى منطقة القرن الإفريقى عامة وفى إثيوبيا بالذات – لم يؤد إلى القضاء على أى من القوتين ٠ ففى المناطق الساحلية بطول سواحل البحر الأحمر الغربية والسواحل المطلة على خليج عدن انتشرت قبائل الصومال والعفر المسلمة ٠ هذا فى الوقت الذى تركزت فيه القوى المسيحية الأرثوذكسية فى الهضاب المرتفعة من الأراضى الإثيوبية وإن لم يخل الأمر من وجود قبائل ومجموعات مسلمة عديدة تعيش وسط مسيحيى إثيوبيا – ومن أبرز هذه المجموعات المسلمة تلك التى تقطن فى – مدينة هرر وفى إقليم بالى والأقادين وأغلب قبائل الأورومو فى الجنوب الغربى والمجموعات المسلمة فى الهضاب الشرقية ومنحدراتها وفى إريتريا ٠ وقد ظل أثر هذا الصراع قويا فى تاريخ المنطقة كلها إلى اليوم (٢) ٠

---

(1) Ibid, P. 41. J. Markakis : Op. Cit., 67-68. Marcus : The Life and Times.

(٢) الأمين عبدالكريم : مرجع سابق ، ص ٦٤ ٠

٧ - أهم النتائج التي ترتبت علي هذا الصراع في الحبشة :

فى هذا الصراع الذى دام أكثر من ثلاثة قرون منى الزيالعة المسلمون بهزائم كبرى كان لها أثرها على المستقبل السياسى للدول الإسلامية فى منطقة القرن الإفريقى ، ولهذا لم يتمكن الأحباش من القضاء على ممالك الزيلع الإسلامية رغم الانتصارات العديدة ، ولم يتمكن الزيالعة أيضا من القضاء على مملكة الحبشة النصرانية رغم انتصاراتهم الباهرة ٠

وبذلك ظل التوازن قائما بين دولة الإسلام ودولة النصرانية فى منطقة القرن الإفريقى ، ولم تتمكن أى منهما من القضاء على الأخرى ،وهذه هى النتيجة السياسية التى انتهى إليها ذلك الصراع الطويل المرير فى العصور الوسطى(١) ٠

ومن الآثار التى ترتبت أيضا على ذلك الصراع الذى قام بين الممالك الإسلامية وبين الأحباش فى تلك العصور ، تعميق الحقد والكراهية فيما بينهما٠ حيث ترك هذا الصراع كما هائلا من الألم والمرارة وشعور بالظلم والاضطهاد الذى لم يجد الزيالعة مخرجا منه ٠ ونتج عن ذلك الظلم حقد دفين وكراهية عميقة تبادلها الطرفان منذ ذلك الحين وأورثاها لأبنائهم وأحفادهم من بعد ٠

---

(١) رجب محمد عبدالحليم « دكتور » : مرجع سابق ، ص ٢٥٠ ٠

وهذا الشعور بالألم والظلم ، وهذا الحقد وتلك الكراهية المتبادلة والمتوارثة هى نتيجة طبيعية لما كان يحدث أثناء المعارك الحربية المتصلة والتى استمرت بين الطرفين · حيث لم ينس المسلمون فى الحبشة إحراق الأحباش لمدنهم وقراهم ومساجدهم ومصاحفهم ،كما لم ينسوا أيضا ما كان يقوم به الأحباش من عمليات التنصير الإجبارى للمسلمين الأسرى أو قتلهم إذا رفضوا ذلك (١) ·

وكذلك لم ينس الأحباش ما كان يقوم به المسلمون من تدمير لقراهم وكنائسهم وقتل رهبانهم ، وإن كان هذا التدمير لم يحدث بشكل فعال سوى مرة واحدة ، حينما تمكن الإمام أحمد جران من اختراق هضبة الحبشة والسيطرة على معظم أقاليمها لبضع سنوات · أما الأحباش فقد كان غزوهم وتدميرهم لبلاد الزيلع قائما ومستمرا بحيث لم يخل عهد ملك حبشى من الزحف والعدوان على إحدى الممالك الإسلامية ·

أما الآن فقد بقى الإسلام عميقا وقويا فى نفوس أبناء هذه الشعوب وإن كان يعتنقه الأغلبية فى إثيوبيا، وكذلك بقيت المسيحية شعبا عريقا وقويا ، والحل الأمثل لهذه الشعوب هو التعايش مع شعوب هذه المنطقة داخل الدولة الإثيوبية الواحدة فى ظل التعدد والوحدة والديمقراطية ·

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٥٠ .

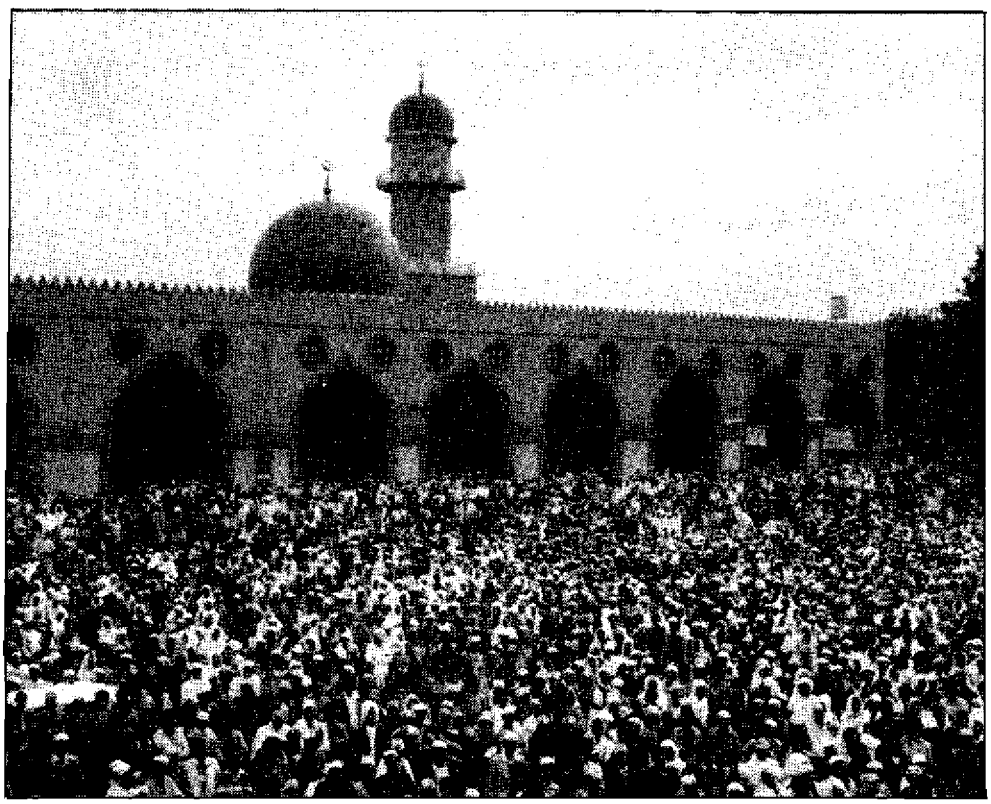

الجامع الكبير فى أديس أبابا العاصمة